نظـــرات فـي رســـائل

ابـــن الأثـــير

دكتـــور

أحمـد يوســف خليفـــــــــة

قسم اللغة العربية بآداب قنـــــا

ابن الأثير : هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الملقب بضياء الدين.

ولد بجزيرة ابن عمر بالعراق في العشرين من شعبان سنه ٥٥٨ هـ ثم انتقل الى الموصل وتلقى على علمائها العلم والأدب. ثم التحق بخدمة صلاح الدين ، ولازم ابنه الملك الأفضل أكثر سني عمره وزيرا ومقربا ومستشارا وقد نجح أحيانا وأخفق أحيانا أخرى.

ومن أشهر أعماله الأدبية والعلمية : المثل السائر ، الواشي المرقوم في حل المنظوم.

الرسائل.

ولضياء الدين أخوان هما مجد الدين صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث، وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ.

وتوفي ضياء الدين في ربيع الآخر سنه ٦٣٧ هـ.

راجع ترجمته في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي أبن العماد الحلبي. تحقيق. لجنة : حياء التراث، طبعه. دار الافاق، بيروت.

وفيات الأعيان. القاضي أحمد أبن خلكان. طبعة عيسى الحلبي ، القاهرة.

حرارة الأحداث واتقادها — ولا سيما السياسية — والتحام المواهب بها والغوص في أعماقها يزيد من نمو تلك المواهب، فتفجر ينابيعها فكرا وبيانا ونموا ناضجا . ولم تكن البيئة الزمانية والمكانية التي وجد ونشأ فيها **ضياء الدين ابن الاثير** الا معلما بارزا في تاريخ الانسانية فقد عاصرتها وارتبطت بها تقلبات سياسية وعسكرية، أسرعت بعجلة متغيراتها في مصر والشام، وامتد صدى ذلك الى أمم وأقاليم غير أسلامية، مما جعلها تكتسب صورة فريدة ومميزة في عصرها، وفي العصور اللاحقة .

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس منيت بلاد الأسلام بل قلبها بزحف ستعماري، تدفعه أحقاد مسمومة، منها ما هو تحت ستار عقائدي مسيحي وهي بعيدة كل البعد عن سماحة المسيحية ورسالتها السامية، وأخرى أن توسم بالحزبية الشعوبية الصليبية، ومنها ما هو في شكل تتاري مدمر، تغذى على موائد الحماقة والجهل وانعدام الوعي باحترام ثمرات العقل والموهبة من العلم والأدب.

في تلك البيئة كانت حياة **ضياء الدين بن الاثير** من المهد الى اللحد، وفي بيت العلم والأدب والثراء كانت نشأته، وفي خضم المعارك وكبريات الأحداث كانت مشاركاته، رجل سياسة وعلم وأدب ومتفنن كتابة، ورب قلم، ارتقى ولمع نجمه في أفق الساسة، فكان قطب رحى في بلاط الملك **الافضل بن صلاح الدين الايوبي** (١)، فساسه بمشورته وحنكة رأيه، ممسكا بزمام وزارته، في ضبابية لاحت فيها مشاعل الفتنة والفرقة، حتى بين الاشقاء من أبناء **صلاح الدين** (٢) وأقاربه مما جعل الأعداء الصليبيين يستعيدون آمالهم المحطمة، فبدأت أطلال تطلعاتهم في محاولة

---

(١) الملك الافضل ولد بالقاهرة يوم عيد الفطر سنة ٥٦٥ هـ تعلم الأدب وأنشد الشعر وكان [illegible] دمشق وسميساط وحارب أخاه العزيز سلطان مصر وتوفي في صفر سنه ٦٢٢ .
راجع شذرات الذهب ٥ ١٠١ .

(٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ملأت شهرته الآفاق ولد سنه ٥٣٢ هـ في قلعة تكريت ثم انتقل الى الموصل ثم الى مصر وصار واليا عليها واقترن اسمه بالانتصارات المتوالية على الصليبيين وتحريره لبيت المقدس سنة ٥٨٣ ومدت [illegible] وأسر ملك وأمراء الفرنجة [illegible] راجع شذرات الذهب ٤ ٢٧٤ .

الاستيلاء على أرض العروبة والإسلام ، ولكن أنى لهم ذلك وجيوش الإسلام مرابطة على الرغم من تشعب الأهواء السياسية وتباين وجهات أكثر أقطابها .

كان قلم ابن الأثير لسان حال تلك الأحداث بقلمه الموهوب ، وفكره الناضج ، وعقله الأريب ومرآته المنظور ، فاستطاع أن يرسم لنا صورة لعصره في فيض رسائله وكتبه ، وامتزاجه بتلك الأحداث واختلاف مشاربها لونت أدبه بألوان مختلفة من المشاعر المتباينة حزنا أو فرحا ، خوفا أو أمنا ، وكلها نسجت في ثوب بياني تملك أعنة الفصاحة وسلطان البيان .

كانت رسائل ابن الأثير صورة بارزة لانطباعاته نحو ما تعرض له من مواقف وتجارب ، كما أنها صورة حية لمكونات الأحداث ونتائجها ، وكان من أبرز أغراضها وصف الحروب وعدتها وعتادها من جند وسلاح ، وكذا حفر الخنادق والآبار ، ومراقبة العدو واكتشاف مكائده ، وسير المعارك والنصر أو الهزيمة كل ذلك له رصيد وافر في رسائله ، وكذا الأخوانيات بألوانها .

في رسائل ابن الأثير لم تغب صورة صلاح الدين وأبنائه وذويهم عن بلاد الاسلام وثغوره ولا سيما بيت المقدس .

لقد أعطانا ابن الاثير صورة لمشاعر المسلمين ودوافعهم للجهاد ، كمطلب الجنة وعزة الاسلام وقوته ، والغيرة على حماه وحرمه ، وحيرة كلمة التوحيد وغربتها " فقد عم النفير وقل النصير ، واذا عادت البلاد المنتزعة من يد الكفار مرهوبة منهم بقارعة الحصار ، فلا ينبغي لمسلم أن تشغله ربحانة فؤاده عن أجر جهاده ، ولا يمنعه حب كسبه عن نصرة ربه ولا يلفته خلطة قطينه عن أنجاد دينه " (١)

أما عوامل القوة ومتطلبات النصر فمنها أنشاء الاسطول لحماية الثغور ، وأعداد الجيوش القوية العدة والأيمان وترتيب القيادة والكشف عن خطط العدو وأهدافه .

أما المعركة فقد أعطانا مشاهد حية لرحاها وصورة أبطالها من المسلمين ، وخزى الأعداء

---

(١) رسائل ابن الأثير : تحقيق الدكتور نورى القيسى ، هلال ناجى ، منشورات جامعه الموصل ص ٧٤ .

من الأفرنج ومصارعهم: " نهضت الجيوش الأسلامية مجدة في تشميز يلها ، معدة ما استطاعت من قوتها ومن رباط خيلها ، تحمل الأعمار القصار تحت الرماح الطوال ، وترغب في اشتراء الجنة بالانفس والأموال ، وتبعتها عصائب طير عاثرة في عثيرها ، واثقة بالغنيمة من جزرها "(١) .

ومن المعارك التي ارتبطت بشهرة تاريخية معركة عكا البحرية ، التي وقعت في منتصف رجب سنة ٥٨٥ هـ وانتهت بانتصار المسلمين على الصليبيين ، وقد وصفها **ابن الأثير** في زهو واعتزاز فقال : " فلما استقروا من المراكب في صهواتها ، ودخلوا من لجة البحر من لهواتها ، ركضوها في هبوات التيار ركض الجياد في ساحة المضمار ، وجاءت مراكب العدو مستلئمة ، وأقبلت مستقدمة وقد أجفل الموج عن لقائها أجفال النعم . . . . .

ولست ترى إلا هاما طائرا وجوا بالبيض مائرا ، حتى صار ريحان الماء بالدم شقيقا ، وبيد فيضه بنار الحرب حريقا ، واعتاض القتلى قعر البحر عن القبور ، وبطون الحيتان عن بطون الطيور "(٢) .

ومنها أيضا معركة حطين التي كان انتصار المسلمين فيها بداية لصنع تاريخ فاصل في حياة البشرية ، إذ حسم هذا الانتصار قضية التطرف الصليبي ، وقطع حلقات مؤامراته ضد الوطن الأسلامي ، وقد صور **ابن الأثير** بعض مشاهد تلك المعركة فكتب: " ولم يزل المسلمون على مسايرة العدو ومساورته ، ومقابلته ومقاتلته ، حتى أقبل الليل ، فتلاقى ليل الظلام وليل القتام ، وتقابلت شهب السماء الطالعة ، وشهب الرماح اللامعة . . فلم نر إلا لبا مطاشا ، ورأسا محشا ، وموارد دم ترد ها الصوارم عطاشا ، وليل نقع جعل النهار لباسا ، والأرواح تعاشا "(٣) .

أما الشهداء فقد ارتبط مشهدهم برؤية دينية واعية ، مستظلة بما رسمه القرآن الكريم وحدث النبي صلى الله عليه وسلم لمنزلة هؤلاء عند الله تعالى ، ومن هذا ما كتبه عن شهداء بيت المقدس

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٣
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

" فمامنهم ألا من عرض نفسه ليوم العرض، ومشى إلى جنة عرضها السموات والأرض، حتى اتسع المكر وضاق بأعداء الله المفر ... وقد منح الله أولئك الشهادة، التي هي الفوز الأكبر، وقرنها بأدنا مضاجعهم في الأرض المقدسة، التي هي أرض المحشر، فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا ألا إلى الاستزادة من ثوب الجهاد، وأيسر ذلك أن أرواحهم في حواصل الطير تعلق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد "(١).

ولم يغب عن ابن الأثير مشاهد المعركة دون تبيان أو تصوير، مازجا مظاهر الطبيعة بمشاعر دينية لإبراز موقف المسلمين، وذلك مثل هبوب الرياح، واشتعال النيران في القوم: " وكان إلى جانب العدو عشب قد أخذ في الخمود وتهيأ للوقود، فأرسل المسلمون فيه النار، وهي سلطان ما أعظمه، وأرسل الله عليه سلطان الريح فأججه وضرمه، فقوتلوا بحد النار وحد الحديد، وعجلت لهم جهنم قبل اليوم الذي تقول فيه هل من مزيد ". أما الأسرى وخذلان قائدهم، فقد جاءت صورتهم لابسة ثياب الجبن والذلة والمهانة: "وجيء بالأسرى كالأنعام المعقلة، والصور الممثلة، خاشعة أبصارهم، دامية .... ثم جيء بملكهم المتوج وقرمهم المدجج، وقد بدل عزه ذلا، وطوقه غلا، وبقلبه من الخوف ما سلب عقله وأنساه ذحله "(٢).

وأسلاب العدو وغنائمه وقتلاه اتسعت رسائل ابن الأثير في مرآه لمعارك الأيوبيين مع أعدائهم أو لمن هاجموا مقر الخلافة الإسلامية من العجم، الحانقين على العرب.

أما مظاهر الفرحة ومشاهدها فقد تعددت إذ رفرفت راية الإسلام مرة أخرى بالنصر على الأعداء في فلسطين.

وجاء يوم أشهى إلى القلوب المؤمنة من محل أوطانها وعمت السعادة والنشوة وأشرقت شمس

---

(١) راجع رسائل ابن الأثير. تحقيق: أنيس المقدسي، منشورات المجمع العلمي العراقي، سنة ١٩٥٩م. ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) الرسائل. القيسي وناجي، ص ٦٨، ٦٩.

الاسلام فأدفأت منازل الأحباب والخلان .

وقد ترسخت الأصالة العربية عند **ابن الأثير** في فخر قومي بغلبة العرب على العجم من الفرس ممثلين في **جلال الدين منك الخوارزمي** (١) الذي قاد حملة بقصد الاستيلاء على أرض العراق وبغداد حاضرة الدولة الاسلامية . وقد رسم **ابن الأثير** جرم ذلك الغازي وأهدافه بقوله : " وهذا العدو تعاطى فعقره ، وأسرف في فجوره لما فجره ولم يكن بينه وبين الأعور الدجال في شيء سوى العور .... نهب الأموال الحرام نهب الشيء المباح ، وأهرق الدماء الحرام أهراق دم الأضاحي ووطيء الفروج المحرمة غير فارق بين السفاح والنكاح ".

ولما هزم **الخوارزمي** : " تبين له أن رجال العجم ليسوا كفاء الحرب العرب وانتكس يجر ثوب الهزيمة ، ويجتر أحباط آماله في مرارة وحسرة : " وما فر ألا وهو عاض على أبهامه ، فعاتب نفسه على أقدامه ، يتمنى أن مسخه الله طيرا في صف الجناح وسرعة الغدو والرواح ، وكان يظن أن العجم لا كفء لهم من العرب "(٢) .

ومما أشتملت عليه رسائل **ابن الأثير** وصف رحلاته وأقاماته بين العراق والشام ومصر ، أن كانت تلك الرحلات مرتعا خصبا لرؤاه وتعرفه لمظاهر الحياة في تلك البلاد ، كما أن تجاربه معهم جعلت من فكره نبعا دافقا لأدبه ، فقد وصف الطبيعة في قرها وحرها ، ووصف حيواناتها كالصقور والفهود والشواهين وكلاب الصيد ، ووصف مجالس الشرب واللهو ، ووصف عادات وتقاليد تلك البلاد ، ولقد ازدحم عصره بأحداث وتطورات ، منها تلك الحروب التي شبت بين العرب والافرنج ، والخلافات بين الملوك والأمراء ، التي أوقدتها الأطماع والأحقاد والوشايات ، فقد اشتملت رسائله على تلك ، وكان لابن الأثير علاقة مميزة وقوية **بالملك الأفضل ابن صلاح الدين** .

---

(١) هو جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين وهو من قواد المسلمين الفرس وقد تصدى لغزو التتار وانتصر في كثير من المواقع وكان شجاعا حاول الاستيلاء على بغداد وبعض المدن الأخرى ولكنه ... سنة ٦٢٩ هـ بعد تحطيم جيشه . راجع : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل تحقيق ... خليس ربيع ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النشر ... سنة ١٩٧٢ ، ص ٦١ ، ٦٣ ، شذرات الذهب ، ٥ / ١٣٠ .

(٢) رجع الرسائل ، نحلة ، المقدسي ، ص ٥٩ .

وهذه العلاقة جعلت مسيراته واستقراره ترتبط بمليكه الأفضل وبحياته .

فاذا أفل نجم المليك ، أو هددته الأخطار ، هرب الكاتب مجتازا الفلوات ومرتديا المخاوف مكتوبا بسوء الموطن ، وفي كل هذا تبدو معالم الطبيعة وصورها فيما يعطيه لنا من فيض قلمه ، ومن هذا ما كتبه عن رحلته من الموصل الى دمشق ومنه : " سرت على أرض الخابور ، وهو نهر ذو غدر وشجر لا يجد ماؤه مسى البرد ، ولا يروى وارده على كثرة الورد ، فالحميم مستمد من شـــرابه ، وطينه الجبال مخلوقة من ترابه ومن صفاته منبع الوخم ، ومنبت السقم . . . . . .

واذا رأيت أهله قلت أحياء في صورة أموات ، فقد منوا بدقة الرقاب وعظم البطون ، وضعف الأصـوات " .

ثم وصف **ابن الأثـير** شرور الأعراب وفتكهم بغريب الطريق ، ووصف المدن التي مر بهـا ومعاملة أهلها للمار بها(١) .

أما رحلته الى مصر ومقامه القصير فيها فمن الواضح ارتياحه ورضاه بذلك ، وتنعمه بطبيعـة وجمال تلك البلاد ، وأعجابه بسلوكيات أهلها ، ومن عباراته : " لقد شاهدت منها بلدا يشهـد بفضله على البلاد ، ووجدته على الحقيقة هو المصر وما عداه هو السواد ، فما رآه راء الا ملأ عينه وصدره ، ولا وصفه واصف الا علم أنه لم يقدره قدره "(٢) .

وأشار الى بعض المعالم والمآثر التي شاهدها كالأهرام ، والمقياس وبركة الحبش ، وبركة الفيل ، ومنظر الحدائـق .

وقد تناولت رسائل **ابن الأثـير** كثيرا من مشاهد الحياة والطبيعة ، ومن طريف ما وصـف يوم مطير ، وأثره في جمال الطبيعة ومنه : "وهذا الكتاب صدر في يوم فرج وجه صباحه في لثـام ، وانتقل عن ليل ظلام الى ليل غمام ، وجيدت الأرض بما جر عليها ذيولا ، وسلك فيها سـيولا وجعل ظهرها صعبا وكان من قبل ذلولا ، وما يقال الا أنه نصب في كل قطر من أقطارها معلما ،

---

(١) الرسائل . تحقيق . د . القيسي وناجي ، ص ١١١ ـ ١١٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

وأقام فيه موسما ونثر على كل ربوة دينارا ، وعلى كل قرارة درهما "(١) .

أما جمال الربيع فقد هام فيه الشعراء والكتاب ولم تفت ابن الأثير المشاركة في وصف بعض مظاهر هذا الجمال كما ورد في أحدى كتبه مما أورده : "ومن أحسن ما تسنى لنا أن أصحرنا في زمن الربيع إلى حديقة مؤنقة يسافر الطرف في شجرائها ويقصر البيان عن أطرائها ، وتغدو حجة ظاهرة في تفضيل حدباء البلاد على زورائها ، فمن مستمتع النفوس حيث شاءت رغدا ، والتي تستحق أن يقول صاحبها لن تبيد هذه أبدا "(٢) .

وقد يكتب عن بعض الأخوان في وصف مجلس شراب وما فيه من لهو وعبث ومجون ، وقد تأخذ الكتابة طابعا ذاتيا وامتزاجا شخصيا مما يخيل للقارئ أن ابن الأثير في غمرة المجلس وبين ندمائه ومما أورده : " وكان في صحبتنا مغن ذو غنى من صوته وحسنه ، وله حظ من الأدب . . . يهيج بلابل الأوتار ، ويزري على بلابل الأطيار ، يخرج من غداره السائل في هالة والهالات لا تكون ألا للأقمار ، فوردنا من المكان أطيب مورد وعقدنا نظام الاجتماع أحكم معقد ، وأخذنا زينتنا عند كل مسجد ووضع بين أيدينا من الزهر الغض ما يفعم ناشقه ، ويثني على صنع خالقه من كل زهرة ضمها النسيم أليه ، فأكثر من قبلها خمش خدها فزاد في خجلها ، وبكاها الغيث فأسرعت الأيدي الى قطافها ، حتى كأن لم يكن بكاها ألا لدنو أجلها . . . ثم أونس بأخته في الحسن وهي الراح التي اشتق اسمها من الراحة . . . "(٣)

ثم يصف التصافي مع ساقي الخمر وصفا يجعله قريبا من الغزل بالمذكر ولكن أنى لابن الأثير مخالطة المجلس ومعاشرته ، أذ لم يكن سوى كاتب عن بعض الأخوان كما ورد في رسالته .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٥ .
(٢) الرسائل ، تحقيق ، المقدسي ، ص ٧٣ .
(٣) الرسائل ، تحقيق ، المقدسي ، ص ٧٣ — ٧٤ .

الأخـوانيـــات

تلألأ نجم ابن **الأثـير** وارتقى مجده السياسى والأدبى لدى الملوك والأمراء والوزراء وعلية القوم، ومصدر ذلك قوة شخصيته وفيض علمه وبلاغة براعه، وطموح آماله، فضلا عن منزلته الاجتماعية التى غمرت بيئته، ومنها وشائج الحب وشدة الولاء التى ربطته بمن يؤمنون بمسيرتـــه ونظرته وعلاجه لكثير من قضايا مجتمعه.

ولم يكن **ابن الاثير** بدعا فى حياة العظماء أن تنسج حوله خيوط الحقد والكراهية، وأن تنهشه سهام الخديعة، ومحاولة صنع الحواجز لأبعاده أو عزله عن بلاط الأيوبيين، كما أن بنـات الدهر ومصائبه تتابعت حوله، بفقد العزيز وتنكر الصديق، وضياع الرفيق، وزوال المنصـــب، وشماتة العدو، وتلك قاصمات الظهر ودواميات القلب.

ولم ينعم **ابن الاثير** بثبات قدم أو استقرار فى بلاط أو مدينة أو أقليم، لذا ضم أدبه وصفا لمعاناة فى رحلاته بين الشام والعراق فارا بنفسه، محاولا النجاة مما أعد له من عقوبة أو غـــدر، كما ضم أدبه تشوقه الى الاصغياء من خلانه وحسراته على فراقهم، وكانت رسائله متعددت الأغراض وأشـــهرها :

الشـــوق :

صلات الود وعبير الصبابة والشوق فيض صاف فى أدب كاتبنا، أذ اتسع لغرر الرسائل الـى خلانه وأوفيائه، ومن هؤلاء **القاضى الفاضل** (١) الذى ربطت صلات الأريحية والأدب بينهمـــا وتجاوبت مشاعر الشوق والحنين عندهما، ومن ذلك ما أجاب به **ابن الاثـير** عن كتاب ورد أليـــه من **القاضى الفاضل** : " وأما شوقى الى رؤيته الكريمة فان السكوت عنه أفصح من البيان ورب صمت قلب أفهم من نطق اللسان، ألا أن أيسره مقارعة الهموم والضلوع، ومطاردة الجفون والهجـــوع،

---

(١) القاضى الفاضل : هو أبو على عبد الرحيم البيسانى ولد بعسقلان وأخذ العلم عن أبيـه ثم حضر الى مصر وصار فى مقدمة كتاب العصر الفاطمى ثم أصبح وزيرا لصلاح الدين الأيوبى ثم لابنه العزيز وكان معاصرا لضياء الدين بن الاثير.

ولقد كان في غلوائه والدار قريبة والآمال غير مريبة فكيف وقد أصبح شمل الآمال مفرقا ، وأضحى الركب مغربا ومشرقا ، لكني أقنع بزورة كتاب التي هي زورة حبيب ، واستشفي ببرد نسيمه الذي هو لداء الغرام طبيب "(١)

ومن الرسائل التي تنم عن وجد عميق ، وشعور صادق أثلج صدره ، وقرت بها عينه ، رسالة وردت إليه من بعض أصدقائه ، فأجاب عنها برسالة ، منها : " ثم مددت يدي إلى الكتاب بعد أن صافحت يد موصله كما صافحت عنيقة مبذاله ، وقلت أهلا بمن أدنى من الحبيب مزارا ، وأهدى لعيني قرة ولقلبي قرارا ، ولو أنصفت لقلت أهلا بمن سرى من الأسرار ، وجرى من الأبصار مجرى الأنوار ، وجمع لي برؤيته بين الأوطان والأوطار ، ومع هذا القول فاني لم أؤد حق الترحيب بمن أسعف بالمطلب "(٢) .

والملك **الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي** فوق قمة من ارتبط بهم **ابن الأثير** برباط الاخلاص والود ، وامتزجت بينهما مشاعر الالفة والصفاء ، فاذا أبعد الكاتب عن بلاط الأفضل ، تدفقت تلك المشاعر مفصحة عن حرقة الشوق وعبير الود ..

التهنئة :

ترتبط التهنئة بمناسبات مغمورة بالفرحة والسعادة ، كالانتصار على عدو أو العودة من سفر ، أو أداء نسك كالحج ، أو أنجاب مولود ، أو البرء من مرض ، وعامل المشاركة الوجدانية سمة أنسانية تتفاوت درجاتها بقدر ما يربط بني الأنسان من معاني الوفاء والصدق والود والقربى ، فقد تكون التهنئة عن صدق شعوري ، وقد يكون الدافع إليها غرض مادي أو أدبي ، أو مجرد المداراة أو المجاملة التي تخلو من أي خيط شعوري يربط الطرفين .

ورسائل **ابن الأثير** تمثل المشاركة الصادقة التي يقوى فيها نبض الأخلاص ، وتتدفق فيها مشاعر الود ، ولا سيما من قرب منه وارتبط به برباط الألفة وصدق الولاء ، كالملك **الأفضل** في

---

(١) الرسائل : تحقيق يوسف بكار ، ص ١٠٧

كل ما أحاط به من مواقف تتطلب التهنئة .

فقد كتب يهنئه بأول مولود له : أحلى النعم موقعا ما تعلقت به الآمال من قبله ، وأذن فرحة ببقاء أصله كالمولد الذى هو من ريحان الله ورزقه ، وأحدى الزينتين المحبوبتين ألى خلقه والمملوك يهنئ مولانا بالمصباح المتوقد من شجرته ، والباكورة المفتتحة من ثمرته ويرجو أن يتبع هذا المصباح بكل سراج وهاج ، وهذه الثمرة بآخر من شكلها أزواج "(١) .

فدوافع الفرحة بالمولود بقاء الأصل ، وتوارد العقب واتصال الذكرى ، وتتابع السلالة ، أما المواسم والأعياد وأداء المناسك الدينية فموقع خصب للتهانى ، وأفضلها عيدا الأضحى والفطر اللذان تتجلى فيهما دفعات الإيمان والجود والاحسان ، كتب ألى أحد أمراء دمشق للتهنئة بالحج : " أكثر الأعمال أجرا أكثرها مشقة ، وأقربها ألى الله أبعدها فى التعب مشقة كحج بيت الله الحرام الذى تهجر له راحات النفوس والأجسام . . . . ولقد أمن الخيف بجواره ، وحرم الحرم بذمة مزاره وكاد الحجر الأسود يبيض باستلامه ، والركن يحييه بتحية وسلامه فلو نطقت هذه المناسك لأقرت بشرف محضره "(٢)

ومطالع الشهور الهجرية وأوائل الفصول لها رصيد فى رسائل ابن الأثير ، ومنها التهنئة بقدوم فصل الربيع ، الذى ارتبط بمشاهد الجمال والنشوة وقد ضمن الرسالة مفاضلة طريفة بين الربيع والخريف ، وزهو كل منهما على الآخر ، ومما ورد فيها : " فقال الربيع أنا المبشر بنطق الأطيار واستغناء الناس عن نقل الدثار ، والاصطلاء بالنار ، وشمس تحل فى برج شرفها الذى جعلت سراجا للسماء . . . . وأما الخريف فأنه قال : " أنا الذى آتى بذهاب السموم وأياب الغيوم ، واعتصار نبات الكروم وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم ، فى يترقرق صفاء الأنهار . . . . . "(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ ، ٩٥
(٣) الرسائل : تحقيق المقدسى ، ص ٨٩ — ٩٠ .

والتهنئة بالنصر وقهر الأعداء من الأفرنج والعجم تتابعت إلى ديوان الخلافة، كتبها ابن الأثير عن نفسه، وعن الملك، وهي ترسم مشاهد الفرح والبهجة، ومنها ما أشرنا إليه في بداية هذا البحث.

التعـزية :

رسائل التعزية تحمل مشاعر الحزن والأسى بقدر ما كان للمرثي من منزلة ومكانة ومهما يحمل لهيب الحزن في حرقة وتوجع، ويبدو أن **ابن الأثير** من الذين تتملكهم الحسرة فلا تجد معه موعظة وذلك أذا كان الميت وثيق الصلة.

كتب إلى أحد الأصدقاء يعزيه في والده : " فأي قلب عليه لم ينصدع وأي صبر لم يمتنع وأي دمع لم ينسجم، وأي عيش لم ينصرم، ولقد بكاه البعيد بكاء الغريب، حتى كأنه للنفس صديق أو نسيب، فالأيام بعده ليال، والهموم ملء والآمال خوال "(١).

وقد تتحطم قوى التصبر والتجلد أمام لهيب الأسى على فقد من لهم وثيق الصلة به كما في حزنه على وفاة **شرف الدين** نقيب العلويين : " فاعذرني في تبلدي وتلددي، وذهاب جلدي وتجلدي، فاني عدمت صبرا، وأرهقت من أمري عسرا ... ولقد أوحشت منه المعالم كما أوحشت المنازل، وآمت المكارم كما آمت الخلائل، وعمت لوعة خطبه، فما يشتكي ثكل ألا أسى ثاكل، وما أقول فيمن عدمت الأرض منه حياها، والمحامد محياها، فلو نطق الجماد بلسان، وتصور المعنى لعيان لأغربت تلك عن ظمأ صعيدها، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها "(٢).

وقد تلتصق الفجيعة به فيكتوي بجمرها وتظلم الدنيا أمام ناظريه فلا يرى لذة للحياة وذلك كما في حزنه على فقد أخيه الأكبر **مجد الدين** ... ومما ورد في رسالته إلى والده يعزيه : " وقد بكيته حتى أرمد كل عين شحيحة، وأعديت بدائي كل كبد صحيحة، وما أصنع بالحياة وقد

---

(١) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي، ص ٨٣

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤.

فقدت من كان قسيمها، وعدمت من كان جنتها ونعيمها ، وأصبحت بعده كعقلة فارقتها أنسانها أو يد بان عنها بنانها "(١)

ومن مظاهر التعزية ورسائلها سعادة اللحد بمن آل أليه أو جاوره واتقاد الدمع وكراهية الحياة حسرة على الفقيد ، ومن هذا ما أورده في بعض رسائله : " كيف يظلم ذلك اللحد وبه من أعمال ساكنه أنوار؟ أم كيف يجد يابوه من فيض يمينه سحاب مدرار؟ أم كيف توحش أفطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الأقطار؟ أم كيف يخفيه طوال العهد على زواره وطيب ترابه ساد للزوار؟ "(٢) ومنها أيضا الأشادة بما للفقيد من أياد ونعم على الآخرين في صور من المقابلات التي تبرز مكانته وعلو شأنه وذلك مثل : "فياويح أيد أسلمته ألى الثرى وما كان يسلمها ألى الأعدام، وألبسته ظلمة اللحد ، وطالما جلا عنها غياية الظلم والأظلام، وغادرته بوحدته مستوحشا ، وقد كان يؤنسها بنوافل الأنعام .... "(٣).

ومن غريب رسائله أن بعضها يتضمن التعزية والتهنئة في وقت واحد وتحمل معاني الفرحة والبهجة ومعاني الحزن والأسى . من ذلك ما كتبه عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود(٤) صاحب الموصل ألى الملك الأفضل علي بن يوسف يتضمن تعزية وتهنئة أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر، أما التهنئة فبوراثة الملك من بعده كتب: " لا يعدم القلم أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنئة، لكنه جمعها جميعا فأتى بهما على حكم التثنية وفي مثل هذا الخطب يظل القلم حائرا ، وقد وقف موقف السخط والرضا ، فسخط أولا ثم رضي آخرا ، وهذا البيت الناصر يتداول درجات العلا ، فما تمضي آلا وأليه ترجع، وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود ، فما يغيب منها غائب ألا وآخر يطلع، والناس أن فجعوا بماجد

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٦

(٢) ابن الاثير، المثل السائر: تحقيق د. بدوي طبانه، دار نهضه مصر ١ / ١٣٠ .

(٣) المثل السائر، ١ / ١٣٠ .

(٤) هو الملك العادل نور الدين أرسلان بن مسعود الأتابكي تولى أمارة الموصل بعد أبيه الملك القاهر وكان شجاعا انتصر على كثير من أعدائه وتوفي بالموصل سنه ٦٠٧ هـ راجع شذرات الذهب ٥ / ٢٤ .

ردفه من بعده ماجد ، وأن قيل أنّ الماضي كان واحدا قيل بل الآتي هو الواحد "(١) .

ويبدو أن الرسالة كانت بدافع المشاركة والمداراة ، أذ لم ترق شعوريا ووجدانيا إلى مستوى الفرحة الصادقة أو الحزن القوي كما يتضح من أساليبها التعبيرية وأشكالها الفنية .

الألم وشكوى الزمان :

قد تتداعى مصائب الدهر ونوائبه وتتزاحم حول المرء وتتقاسمه وقد تطرقة أسحارا بين سمار ، أو تنهشه عيانا بين رفقائه ، ومن الناس من يتصبر في ضيق وحسرة ، ومنهم من تضعف عزيمته فتتردى قواه ويذوب جلده ، ومن كبرى بنات الدهر فقد الأب أو الأم أو الزوج أو الخل الوفي أو زوال المال أو الجاه ، وقد اكتوى **ابن الأثير** بكثير من تلك ، فغمرته الحيرة وتجرع مرارة الأيام وسهد الليالي ، فكم خرج فارا وهاربا من مكيدة دبرت له ، أو وشاية نسجت حوله ، كان **ابن الأثير** في حقبة ما عقل الملك الأفضل ونظره الثاقب ولسانه في كل ناد ، وأمره في كل ديوان ، وتجاوزت العلاقة بينهما كل علاقة بين وزير وأمير أو كاتب وملك ، وقد أشار وأشاد **ابن الأثير** بذلك فيما كتب : " ملك قدمني على أصحابه وأن كنت متأخر الصحبة ، وغادرني من بره في بعض وأن كنت مقيما في دار غربة ، وبسط لي قلبا ولسانا ويدا ، وأفسد نظري فلم أر بعده أحدا ، ولقد أجفو فلا يجفو وأكدر عليه فيصفو "(٢) .

لذا كانت نكبة الملك **الأفضل** وزوال حكمه نكبة **لابن الأثير** ، ولما زال حكم دمشق عن الملك **الأفضل** هرب **ابن الأثير** إلى الموصل مكتويا بنار المخاوف والهموم ، لابسا ثوب الفزع من أعدائه الذين طوقوه بسهام التهديد والرعب ، ولكن أنى لهم ذلك وعزيمته - كما يدعي - أقوى وهمته أعلى فتمرسه وحنكته بدروب النجاة ساعدته على اجتياز المهالك ، والنجاة من كل شرك نصب لصيده ، وقد أشار إلى ذلك في مضاضة وتوجع : "وأجمعت المسير في يوم

---

(١) المثل السائر ، ٣ / ١١٧ .

(٢) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ١٠١ .

طوله ترقب الوقوع في حبائل الارصاد ، وقصره الفكر في ركوب لجة البريغير قرين ولا هاد ، ثم هون ذلك نفس لم تكن على ركوب الاخطار ضنينة ، وعزيمة أذا عن لها بحر الاهوال كانت له سفينة ، وهمة يقصر عندها المدى المتطاول ، ولا ينظر عاقبة فيما يحاول ، فسرت غير مكترث برفيق ولا صاحب ، ولا مخلد الى طيب طعام ، ولين جانب ، وسرت مفاوز تكذب فيها العين والاذن ، وتشقق منها الأيدان والبدن "(١) .

ويبدو أن النكبات الماسية لاحقته لان صوت الشكوى ما زال يلازمه ، ومن تلك استيلاء الملك العادل على مصر ، وفراق ابن الاثير لها في حسرة ومرارة قبل أن ينعم بالمقام فيها وما كتبه في هذا : " كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين " أصدرت هذا الكتاب الى المولى الأخ مجد الدين لازالت الايام أليه يدا ولا أشمت الله به عدى ، بعد أن فارقت مصر التي هي مدى الاوطار ، ومدد أحاديث الاسمار ، والجنة التي تجرى من تحتها الانهار ، الا أني أخرجت منها قبل أن آكل من شجرتها ، ولا سرحت قلبي في سرورها ولا عيني في نضرتها "(٢) .

ومما زاد من غصة مرارة الحياة واتقاد جمر المهرب لجوؤه الى حصن " صرخد " حيث الوحشة وسوء المنقلب: " .... وقد عدلت الآن عن شكوى الزمن المليم الى شكوى المكان الذي أنا مقيم ، وكيف لا أشكو أرضا منيت بقلة خيرها وشؤم خبرها ، فلا يوجد بها جار الا البوم ، ولا زاد الا الهموم "(٣) .

ومن موجعات القلب وعلله فراق الحبيب ورحيل الخلان الذي يسهد العيون ، ويقض المضجع ويفجر منابع الحزن كما ورد في أحدى رسائله : " هذي شكوى لا يشكى منها الا مساعفة الايام بمعاودة الاجتماع والالتئام ، فالمشكو أذا هو حادث الفراق الذي نشأت عنه لوعة

---

(١) الرسائل : تحقيق القيس وناجي ، ص ١٠٠
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

الأشواق، ولم يجنه ألا بنات القفار من ذوات السروج والأوكار، فانها طالما فرقت حبيبا، وباعدت قريبا ولم تترك بالديار غريبا، كأنها من أخوات الدهر في حوادثه صروفه وما يعول عليه المرء في ألفه ومألوفه "(١).

وابن الأثير خبر الحياة بأفراحها وأتراحها، وغاص في مكنون أسرارها وعمق خفاياها، فقد كتب عن الموت والحياة، والقضاء والقدر، والغنى والفقر، والنجاح والاخفاق، وقد يقف فيما كتب موقف الواعظ الحكيم مع أحداث الدهر ومصائبه: " فقد حلبت الدهر أشطره، وتأملت ما خط لوحه فقرأت أسطره، فلم أر خيره وشره ألا حلما، والانسان ابن يومه، لا يجد لما مضى طعما، والغنى كل الغنى فيمن يرى الطريق ويعمى عن سلوكه، ولكنها الدنيا التي ملكتنا، ولا غرو أن ينفذ أمر المالك في مملوكه، فنحن مسرورون بشهواتها وهي تقذف بنا نحو لهواتها وأعجب ما فيها أن صاحبها يحسد على ما يرحم من أجله "(٢).

أما زوال الشباب وانصرام أعوامه وهجوم المشيب وعلله فحسرات ابن الأثير نحوه ظاهرة واضحة فقد تحطمت الآمال وفترت اللذات، وضعفت العزائم والهمم وقد صور ذلك في حسرة في كثير من رسائله ومما ورد في أحداها: " وقد بعد عهدي بالكتاب وقرطاسي وقرطاسه كما بعد عهدي بالشباب ولباسه ومما برح بي نزول قادمة الشيب قبل قدومها، واختلافها فيما أحدثته من لونها وألوان همومها فقرنت عشاء ليلى بسحره وأهلت شهري بغرة قمره، ولئن شاب الرأس فقد شاب القلب من قبله "(٣).

وابن الأثير في هذا ليس بعجب فقد كان من الذين تألق نجم شبابهم وازدهر روض ضحى عمرهم بعلو مركزه الأدبي والسياسي، فأية آمال لشبابه لم تتحقق؟ وأي مركز يهفو أليه لم يتربع على عرشه؟ ولكن أنى له بقاء ذلك؟ أذ دوام الحال من المحال، فقد انقلب عليه

---

(١) الرسائل: تحقيق العيسى وناجي، ص ٨٢
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٨
(٣) المصدر السابق، ص ٧٧.

ظهر المجن وحلو الحياة أمسى علقما ، وقريبها بعيدا وصديقها عدوا ، همه كثير وليله طويل .

ومما يزيد من شكواه تنكر الدهر وشماتة الحساد ونكران الجهد والصنيع : " ففي القلب غلة تخبو فيهيجها أنسي سبقت وحاز غيري خصل السباق ، وجمعت كنزا وفاز غيري بحظوة الانفاق وليس الأسى — والحمد لله — على دنيا كنت أستفيدها ، بل على أيام ذهبت ولا أجد من يعيدها(١) .

ولم يزل **ابن الأثير** يشكو فتور الحياة وجمودها ، وأدبار الآمال وهروبها في مساء عمره وتلك طبيعة الأيام ، وسنن الحياة في لحظات الرحيل والنهاية .

العتاب :

العتاب غرض يتسم برقة العبارة وهدوء العاطفة ولين الجانب وارتباط المشاعر بعضها ببعض وبخاصة بين ذوي القربى ومع الخلان الأوفياء وقد اشتملت كتابات **ابن الأثير** على هذا اللون فمن أخ يعاتب أخوته كتب: "جرحوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة وطرفوا عيني وهم يزيدون في نظرها ملاحة ، واذا صدرت الاساءة عن الأحباب لم يكن وقرها وقرا وأصبحت وهي منسية أذا تجددت الاساءة بالذكرى ، وما منهم ألا من سبط دمي بدمة "(٢) .

فمشاعر الألفة والتسامح والتجاوز عن العثرات تتأصل في طبيعة النص وقوالبه وتلك سمات سائدة مع الأهل والخلان .

---

(١) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ٦٤ .
(٢) المثل السائر ، ١/ ١١٠ .

البنـــاء الفـــنى

تشتمل أسس الرسالة على مقدمة وعرض خاتمة، ولبنات هذه الأسس لا تنفصل عنها فى مقوماتها الفنية، فضلا عن ان هذه الأسس لا تنفصل عن بعضها، ولا يمكن رؤيتها على أنها مكونات تقوم على انفراد، بل الكل بناء يرتبط ارتباطا فنيا، ويترابط مضمونا وغرضا. ولذا فان المقدمة، مثلا تحمل هدف الرسالة ودوافعها ولو فى أيحاء، وقد يشد الكاتب ارتباط ببعض المعانى المبتدعة لا تخفى على المتأمل، ومن ذلك ما جاء فى احدى رسائل **ابن الأثير** عن الملك **الأفضل** أبى والد **صلاح الدين**، يهنئه بالانتصار على الفرنج فى طبرية فى ربيع الأول سنه ٥٨٣ هـ. " أبكر المناقب كأبكار الكواعب تزهى بجمالها، وتنأى بوصالها، ولا تزف ألا لمن يقوم بأمرها، ويصح بأغلاء مهرها، وقد فاز المملوك منهن بمنقبة كثيرة الأحساب، قليلة الخطاب، تكون لصاحبها فى الدنيا رافعة، وفى الآخرة شافعة، وهى قود الجياد ألى مواطن الجهاد، وابتكار الفتح الذى تملى فيه معانى القضب على ألفاظ الكتب، ويستدل عليه بشهب الرماح لا بالسبعة الشهب "(١)

فمعانى العبارات الأولى لم يغب عن منظور **ابن الأثير** فيها قول **أبى فراس الحمدانى**:

تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

والأخيرة لم يغب عنه قول **أبى تمام**:

والعلم فى شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

وأكثر ما تبدأ الرسالة بالدعاء للمرسل أليه وألباسه ثوب الثناء والمدح، ومن ذلك رسالته ألى **مجاهد الدين قايماز** صاحب الموصل(٢): " صدرت هذه الخدمة ألى مجلس المولى

---

(١) الرسائل: تحقيق القيس وناجى، ص ٦٥

(٢) مجاهد الدين قيماز حكم اربل سنه ٥٥٩ ثم حكم الموصل نيابة عن سيف الدين غازى سنة ٥٧١ وكان ضياء الدين ابن الاثير من كتابه وتوفى سنة ٥٩٥ هـ.
راجع الأعلام، ٥/ ١٨٨، مفرج الكروب، ٢ / ١٥٣.

الصاحب **مجاهد الدين** لا أخفر الله له ذماما وجعله لأهل المكرمات أماما ، ودافع به عن حرم المعالي فانه خير من دافع عنه وحامى ، ولا زال من المسرفين في أنفاق الخير ... "(١) .

وقد يختلف نسيج الدعاء ولونه باختلاف الأحوال التي تحيط بالمرسل أليه ، والآمال التي تتعلق به ، وبمنزلته الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية . فحالة الحرب تتطلب المقدمة الدعاء بالنصر وقهر العدو ومحق أباطيلة ، ونشر الأمن والعدل ، وذلك كما في مقدمة رسالة عن الملك **الأفضل** أبي **نور الدين ارسلان** شاه صاحب الموصل ، واشتملت على الدعاء بالمحامد والفضائل التي يمكن أن يرتديها أمير أو ملك : " أعز الله نصرة المجلس العالي الملكي العادلي النوري وخلد أيامه تخليد معاليه ، وجلا الدهر بدولته التي كثرت نجوم لياليه ، وأغناه بجيوش جده ، عن تجريد سيوفه وتسديد عواليه ، وجعل الأقدار تابعة لأمره تبع خوله ومواليه "(٢) .

وقد تبدأ الرسالة ببيت من الشعر أو بآية من كتاب الله تعالى ، تعقبها جمل تحمل مضمونا أسلاميا ، وأكثر ما يكون هذا عند النصر على عدو أو التحذير منه أو من خطر قدومه أو الفوز بعودة أرض(٣) .

ومن الشائع عنده ، بدء الكتب السلطانيه بالتحميدات التي تشتمل على معاني وأغراض هذه الكتب أما الرسائل الأخوانية أي من هم دون الملوك والأمراء فمقدماتها تشمل الدعاء برغد العيش وحميد الأثر وبقاء الذكرى وتوالي العقب مع أشادة بمناقب المرسل اليه كما في رسالته الى بعض الأصدقاء : " ورد كتاب حضرة فلان صان الله مهجته وعرضه ، وسقى عهده ، وأرضه ، ومنحه رغد العيش كثيره وخفضه ، ولا زالت آثار مآثره تتلى ، وأنوار خواطره تجلى ، وأعمار محامده ، يبلى الدهر ولا تبلى ، فأغنى وأقنى ، وأتى بالحسن والأحسان مثنى مثنى "(٤) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣

(٢) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ١٣٥ .

(٣) الرسائل : تحقيق المقدسي ، ص ١٧ وما بعدها .

(٤) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ٧٦ .

والطبيعة مرتع خصب وساحة متسعة الأرجاء ومجال واسع، استطاع الكاتب بحرية ومقدرة أن يرتع في جمالياتها، وأن يوظفها في مقدمات رسائله مع تكثيف المشاعر وموسيقا العبارة كما في قوله " وصل كتاب حضرة سيدنا لا زالت أقلامه منتقلة من منبت أجم الى منبت حكم، ومن استقصاء قطر الى استقصاء بحر، ومن مجاورة ليث غاب الى مجاورة ليث خطاب.. ولقد غدوت من حسنه البديع في فضل ربيع، فكلما شاقتني سطوره قلت: روض سنح، وكلما عنتني ألفاظه قلت: حسام صدح وكلما سقتني معانيه قلت: غدير طفح .... "(١).

ومقدمات رسائل التعزية تحمل الحسرة والتفجع مع الدعاء بالصبر والثواب كقوله في السرد على أحدى الرسائل: " وصل كتاب المولى حرس الله من الحوادث جنابه، وحفظ عليه أعتابه وأحبابه، وأجزل على هذه المصيبة ثوابه، ولا لقي بعدها ما يسيء به ظناه، ولا يفرح سنده، ولا يحمل به على الدهر ضغناه، وجعل بقاءه عوضا يأسو كل كلم، ويرأب كل ثلم، ويحل تقشد كل هم "(٢).

اما موضوع الرسالة وعرضها فصورة للواقع السياسي والعسكري والاجتماعي والنفسي لابن الاثير وعصره، فتقاسم الدول والأمارات والتنازع على بلاطاتها ومحاولة الاثرة أو التفرد بها سمة العصر ومشغلة الولاة، وكذا المعارك بين المسلمين والفرنجة وبين المسلمين وبعضهم وبعض، ولم تكد البيئة تهدأ حقبة حتى تعصف الحروب بأمنها أحقابا.

وابن الأثير - كما أشرنا - له دور مهم في تشكيل وصنع لبنات واقعه السياسي ومراسيم بلاط الافضل، وعلاقاته بالآخرين، وقد حالفه التوفيق ورضي الآخرين أحيانا، وقد ضاقت السبل أحيانا، فاكتوى بجمر السخط والبغضاء والطرد والهروب، واتضح هذا في مضمون كتبه الى الآخرين.

---

(١) الرسائل: تحقيق القيسي وناجي، ص ٨١.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

وخاتمة الرسالة تختلف أيضا باختلاف موضوع الرسالة وغرضها ، وهي لا تخلو من دعاء يرتبط بالموضوع والغرض ودرجة ومكانة المرسل أليه ،فرسائل التهنية تتملك خاتمتها الدعاء بـــــدوام الفرحة والبهجة واستمرارية بواعث ومظاهر ذلك. ورسائل الحزن تكثفخاتمتها مشاعر الحســـــرة وحرارة الحزن ولهيبه ، كما في حزنه على أخيه : " وعليه مني سلام حزين لا ينفد حزنه، ولا ترغب في مرأى ولا في سمع عينه ولا أذنـــه " .

وابن الأثـــير لم يبتعد عن المقومات الفنية للكتابة في عصره فهو كغيره من كبار الكتاب حريص على الصنعة اللفظية بألوانها ، ولا سيما السجع حيث يعده من مقومات الكتابة الجيدة ، أذا جاء غير متكلف، ملك رقاب الكلام واستعبد كرائمها واستولد عقائمها ، وأذا خلا منه الكلام فلا يعتـــد به ووضع لجمال ذلك شروطا (١) وأعطانا نماذج مقصودة للجيد منه منها : " الخادم واقف موقـف راج هائب لازم يكتابه هذا وقار حاضر عن شخص غائب موجه وجهه أني ذلك الجانب الذي تقســـم فيه أرزاق العباد ، ويتأدب به الزمان تأدب ذوي الاستعباد، وتستمد الملوك من خدمته شـــرف الجدود ، كما تستغني بنسبها أليه عن شرف الأجداد ولو ملك الخادم نفسه لقصرها على خدمـــة قصره ، وأحظاها من النظر أليه ببرد العيش الذي عمرها محسوب من عمره وهذا القول يقوله وكل ما جد فيه حاسد ويتأميله راكع ساجد . . . " (٢) .

وأعطانا كذلك نماذج لما راه من استخدام السجع الجيد لبعض الكتاب كالصابي ، وأشـــاد أني من أسماهم " المفلقين " في هذا **كابن العميد وابن عباد** (٣) .

واذا كان **ابـــن الأثير** قد أجاد في كتاباته وجاءت سجعاته بليغة لها دور رئيسي فـــــي خدمة المعنى ، ولكنه في ندرة من المواضع قد يلجئه الحرص أني استعمال بعض العبـــارات أو الكلمات المسجوعة أو ألوان أخرى من البديع لا تمثل دورا مهما في الفكرة أو الغرض كما في كتابتـــه

---

(١) راجع المثل السائر ١ : ٢١٠ وما بعدها
(٢) المصدر السابق، ١/ ٢١٥ .
(٣) راجـع المثل السائر ١/ ٢١٤ .

عن رسالة وصلت إليه من أحد أصدقائه :

" وجدته قد حوى أسرار البيان جزالة ولطفا ، وعرف منها ما لم يألف البلغاء له عرفا ، وأنس ما تقدم من أساليبها ، فعصف لها عصفا ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا "(١) .

فمن الجلي أن التضمين في آخر العبارات جاء لمجرد المحافظة على السجعة دون أن يكون له دور مبرم في الفكرة ، مما جعله غريبا في موضعه .

ومن المظاهر الواضحة : عند ابن الأثير صنع المقابلات للمفاضلة بين المعنى أو محاولة تأكيدها ودفع المتلقي إلى قبولها مثل " ولئن خرجت أيام القرب بانصرامها فقد آست ليالي البعد بأحلامها ، فالأرواح تلتقي سرا من الأجسام والقلوب تعتاض من اليقظة بحسن المنام والأيدي تتصافح ولا لقيا ، وغليل الوجد يتروى ولا سقيا "(٢) .

واستخدام مصطلحات العلوم من سمات كتاباته العصر وقد كثر استخدام ابن الأثير لها مثل : " انا أشرح له أحوالي فانها مما تزيد القلوب صدا وليس بمنكر أن تغدو خبرا بعد أن كانت له مبتدأ "(٣) .

وللكاتب اهتمام بتوظيف الشخصيات التراثية وبخاصة عند تناوله لموقف حربي ، أو حثه على المشاركة في معركة ، وذلك لتقوية الدافع إلى التغير وشحذ العزائم للتضحية والفداء ، والتحذير من التخلف عن القتال مثل قوله: " ... وذلك فرض لا يقعد عنه إلا من رفع القلم عن كتابه أو خدع عن الفوز بدرجة ثوابه ، ولو لا أن نية المرء خير من عمله لنوقش العبد لتثبط أنجاده عن الخصب السريع والذرع الوسيع وخاف أن يكون رابعا لهلال بن أمية وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع "(٤) .

فقد وصف الشخصيات الثلاث الذين تخلفوا عن غزوة تبوك توظيفا جيدا لخدمة الغرض الذي

---

(١) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ٨١
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٨ .
(٤) الرسائل : تحقيق المقدسي ، ص ١٨ .
وهؤلاء الثلاثة تخلفوا عن المشاركة في غزوة تبوك فندموا وجاءوا الى الرسول صلى الله عليه =

يقصـــد ه .

وتنوع الأسلوب بين الإيجاز والأطناب يرتبط بالموقف والمتلقى، كل حسبما يلائمه أو يرتبـــط بالحالة الشعورية أو النفسية التى تغمر الكاتب. ولا يخلو أسلوب الكاتب من التصرف فى مأثور القول والاسترسال فى بسط معناه بالاطناب أو المقابلات مثل : " وأن من البيان لخمرا يسكر من غـــير تحريم وليست بذات لغو ولا تأثيم، فهى من سلاف الألباب لا سلاف الاعتاب، ومن بنات الخواطـر لا من بنات الدساكر " (١) .

وقد توضح فكرة المأثور فى صياغة جديدة أو ثوب متغير النسيج فمنازل الشهداء فى الآخـرة وضحتها أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم، ووظفها **ابن الأثير** لمنازل شهداء بيت المقـدس فيما كتب: " فما يسرهم أن يعودوا الى الدنيا الا الى الاستزاده من قـرب الجهاد وأيســـر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير تعلق من ثمار الجنة الى يوم الميعاد " (٢) .

ومن الكتابات اللطيفة التى وردت فى احدى رسائله : " وعهدى بقلمى وهو يتحلى مـــن البيان بأسمائه، وتبرز أنوار المعانى من ظلماته، وقد أصبحت يدى منه وهى حمالة الحطـــب وأصبح خاطرى **أبـا جهـل** بعد أن كان **ابا لهـب** " (٣) .

فقد وظف لقب " **حمالة الحطب** " وكنيتى " **أبا جهل وأبا لهب** " توظيفا كنائيا للاشارة الى نضوب الفكر وعجز القريحة عن الأداء فى حسرة ومرارة شكوى .

وقد يلجأ الى الموازنة اللفظية لبيان قيمة عمل ما أو أفضليته وتفوقه على غيره، موظفا مشاهد

= يعلنون ندمهم ونزل فيهم قول الله تعالى : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تـــاب عليهم ليتوبوا أن الله هو التواب الرحيم "
التوبـة : ١١٨ .

(١) الرسائل : تحقيق القيسى وناجى، ص ٧٩ .
(٢) الرسائل : تحقيق المقدسى، ص ١٤٩
(٣) المثل السائر، ٣ / ٨٠

الطبيعة لخدمة هذا الغرض وذلك كما في الأجابة على رسالة أحد أصدقائه مشيدا بفصاحة تلك الرسالة : " أين حول الديم من حول القلم؟ أين زهر الروض الذى يمضى أوانه ، وتحول أنوائه من زهر اللفظ الذى تبقى أفواهه ، ويترفع عن منال الأيدى قطافه؟ "(١) .

وقد يوظف معانى الكلمات ودلالتها المعجمية لبسط الفكرة ووفاء المقصد وذلك مثل لفظى " الكفر والصليب " فى: " واقبلت أحزان الكفر معتصمة بصليبها ، ورفعته على أعمدة عالية كهيئة صليبها ، ولم نعلم أن كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة وانه ذو شعب أربع ، والتربيع نحس فى حكم النجامة ، وكيف ترجو بكفرها ظهورا ولها منه معنى الأختفاء ، وللاسلام معنى السلامة "(٢) ويبدو عند ابن الأثير استعمال سائد لبعض الألفاظ مثل " الصحائف والصفائح ، وشهب الأرماح ، والسبعة الشهب ، والمملوك والخادم ، والمجلس السامى ، والفناء السامى ، ومخدومه ومولانا " وكذا بعض التعبيرات مثل " أدام الله سلطان العزيز النبوى وللأراء العالية مزيد العلو " وهى ألفاظ وعبارات شاع استعمالها لدى كتاب العصر .

ومما يشيع عند ابن الأثير نثر الأبيات وصياغتها بألفاظ جديدة مع الأبقاء على المعنى كله أو بعضه أو الزيادة عليه ، وقد جاء هذا العمل عن قصد وأعداد لتقوية الملكة الأدبية وتنمية الطبع والموهبة : " من أحب أن يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ فى نثر الشعر من محفوظاته "(٣) .

وقد أن يعيد ذلك أنما يذكر البيت الذى أخذ منه المعنى وذلك مثل : " صورنا فى غاية من الكتائب تظلها غمامة من الطيور الاشائب ، فهذه يضمها بحر من حديد وهذه يضمها بر من صعيد " أشار إلى أنه أخذ المعنى من شعر المتنبى فى قوله :

---

(١) الرسائل ، تحقيق القيسى وناجى ، ص ٢٦ .
(٢) المثل السائر ، ١١٤ .
(٣) المصدر السابق ، ١ / ١٠٨ .

صحاب من العقبان يزحف تحتهـا سحاب أذا استمقت سقتها صوارمه (١)

ومنها ما ورد في أحدى رسائله عن هزيمة الكفار " فسلبوا وعاضتهم الدماء عن اللبـــاس فهم في صورة عار ، وزيهم زى كأس وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمر " أخذه من قول البحترى :

سلبوا واشرقت الدماء عليهـــم محمرة فكأنهـم لم يسلبـــوا (٢)

ومن هذا أيضا ما أسماه بحل آيات القرآن العزيز، وهو غير " التضمين " لأن الطريقـة تعنى أخذ المعنى والباسه ثوبا جديدا ، ومن ذلك ما كتبه عن الملك الأفضل لى عمه العـــادل يستعطفه ومنه " ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبة حتى ملأ طرفه كحل السهاد وجنبه شـوك القتاد ، وأصبح وهو يرى أنه زلق فى خطيئته زلقا ، وغص بندمه من أجلها شرقا وبدت له سـوآته حتى طفق يخصف عليهـا ورقا ... " (٣).

وهذا — كما أشار — مأخوذ من معنى قول الله في سورة الأعراف: " بدت لهما سؤاتهمـــا وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنـة " .

ويرى ابن الأثـير أن هذا الأسلوب أعلى درجات الكلام " أذا أردت أن تسلك هـــذه الطريق وقد رددت على سلوكها وهى من محاسن الصناعة البلاغية وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها لأنها ممزوجه بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به ، والله يختص بهـا من يشاء من عباده " (٤).

ومنه حل معانى الأحاديث النبوية والسيرة الشريفة ، ولكن هذا يحتاج الى خبرة ومطالعة وتمحيص لأن الأخبار والأحاديث كثيرة ومصادرها متعددة (٥).

---

(١)، (٢) راجع المثل السائر ١/ ١١٣

(٣) المصدر السابق ١/ ١٤٠

(٤) المصدر السابق ١/ ١٤٩ .

(٥) راجع المثل السائر ١/ ١٥٢ وما بعدها.

بين ابن الأثير والقاضي الفاضل

تعاصر الكاتبان الكبيران وربطت بينهما كبريات أحداث عصرهما ، وقربهما من بلاط الأيوبيين ، كما أنه قربت بينهما صداقة ولقاءات ، ألا أن القاضي الفاضل حظي بشهرة وذيوع ، وأكثر الألسنة رددت ومازالت ترددت سمات طريقته المميزة في فن الكتابة ، ومع أن ابن الأثير لم تسعفه الشهرة أو تقف بمعلى خط مواز للقاضي الفاضل لكنه يزهو بنفسه فوق تلك المنزلة ، ويأبى أن يشبه بالقاضي الفاضل في قدرته الأدبية ، ودليل هذا أن معين الدين بن سكينه شيخ الشيوخ ببغداد[1] أرسل الى ابن الأثير رسالة أشاد فيها ببلاغته وأدبه وشبهه بالقاضي الفاضل فأجاب ابن الأثير رافضا هذا التشبيه لأنه — كما يعتقد — غبن لمنزلته ومما جاء في الرسالة " أما تشبيهه أياى بفلان الكاتب فرب كلمة تقول لصاحبها دعني ، ولقد وضعني بقوله هذا وهو يرى أنه رفعني ولم يضعني، لكن يغفر له ذلك لسلامة قصده ، ويحمل أنه اشتبه الذهب بالنحاس على نقده ، وماأراد ألا أن يبلغ بفضيلتي فوق طاقتها فلم يبلغ بها طوقها ، وقد تأسيت في هذا المقام بضرب الله مثلا مابعوضة فمافوقها "[2]

ويلمح ابن الأثير في غير غموض ألى أن شهرة القاضي الفاضل ليس مصدرها مقدرة لغوية أو عبقرية أدبية أو لغوية تعلو على مقدرته وانما مصدرها ارتباطه بالدولة الأيوبية وبصلاح الدين أى أن عامل السياسة والقرب من البلاط لها الدور الأكبر في تلك الشهرة ثم يدعي أنه لو منح تلك المنزلة لأبدى من البلاغة ونال من الشهرة ما يأخذ بالالباب. يقول مخاطبا شيخ الشيوخ " فتفضل يامولاى و أعطني دولة كتلك ، حتى أخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجدا وتكره ألسنة الأعداء أن تنطق لها حمدا ، وتتمثل على وجهها غرة ، وفي جيدها عقدا ، وينقاد عند ذلك لي القلم أغنى عن السيف فلم يحوجه أن يفارق غمدا ، ولو نظرت ألى كمي حق النظر لعلمت اني لم أترك لأحد من الفصحاء بغية ، وأن جيء أليكم بكلم غيرى فألقيها ، وقل والله لقد

---

(١) لم نعثر على ترجمه وافيه له

(٢) الرسائل : تحقيق المقدسي ، ص ٣١٣ .

جاءكم بها بيضاء نقيـة " .

ثم يدعى أن هذه حقيقة ، وليس من قبيل الزهو أو مجاوزة القدر دون ما سند : " ومـا ينبغي للمجلس أن يستكبر هذا القول ، فإن الله قسم الحظوظ أقساما ، وكما أحظاه بقـرب خليقته الذى هو أمام العصر فكذلك جعل لسانى للألسنه اماما " (١)

ويحاول **ابن الأثـير** أن يتلمس حجة أو دليلا على ذلك ولكن يبدو أن المحاولة لم تسعفه ولم تكن سوى روئ ذاتية ، ومن ذلك ما كتبه عن كتاب **للقاضي الفاضل** الى الخليفة العباسـى يخبره بفتح مصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية بعد محاولات ثلاث فكتب **ابن الأثـير** عن هـذا الكتاب: " ولما تأملته وجدته كتابا حسنا قد وفى الخطابة حقها ألا أنه أخل بشيء واحـد وهو أن مصر لم تفتح الا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح في المرة الثالثة ، وهذا له نظير في فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، فأنه قصدها عام الحديبية ثم سار أليها في عمـرة القضاء ثم سار أليها عام الفتح مفتحها .. فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصرى وفتح مكة "(٢) .

ولكن شتان بين ما أشار أليه **القاضي الفاضل** وما كتبه **ابن الاثير** أذ لا مجال للمماثلـة التي يدعيها **ابن الاثير** لأن الرسول (عليه السلام) في المقصدين الاولين لم يكن غرضه الفتـح وانما كان للعمرة ، **أما مقصد صلاح الدين** بدءا وانتهاء فهو فتح تلك البلاد وتوسيع دولـة **بني أيـوب** .

ولعل ما أشار أليه **ابن الأثـير** دافعه اصطناع النقيصة و محاولة ألباسها **القاضي الفاضل** والزهو عليـه ولأن **ابن الاثير** في مواضع عدة ، ومواقف كثيرة يزهو بنفسه وبفصاحة قلمه وقوة ملكته وربما في شيء من المبالغة كما في احدى رسائله : " وقد منح الله لساني من ذلك ما حسده عليه الروض الموشـع والسمط المرصع والقمر وهو ابن عشر وأربع " (٣) .

---

(١) راجع المصدر السابق ، ص ١١٣ .
(٢) المثل السائر ، ١/ ٥٦
(٣) الرسائل : تحقيق القيسي وناجي ، ص ٧٩ .

[illegible] في أمر التوفيق بين أمرين بالنظر في براعة الكتابة وجمالها عن طريق الصنعة في استخدام ألوان من البديع [illegible] وبين وظيفة الخط [illegible] وسيلة لتحقيق الأغراض التي عددناها وبعد تأمل ما أورده سهيل في هذا الكتاب يظهر للقارئ صحة ما ذهبنا إليه ونلمس كان من تقدمه أتى بشيء من ذلك فإنه وإن وصفه جوادا ورائعا جملا ، ونال من مورده نهلة واحدة وغلت منه نهلا وعلا "(١).

ومن هذه الأوصاف [illegible] وهذه الأوصاف تتم عن [illegible] في الخط [illegible] يقول ابن الأنصر أنه أكثر من كتابته عند أكثر الكتاب والمتقنين حيث نعت القاضي أنه أعلى الدرجات ومن هؤلاء النويري الذي يقول : "أن كل فاضل بعد الفاضل فضلة "(٢).

والعماد الأصفهاني أيضا الذي أشاد بتفوق القاضي فقال : "ربه القلم واليراع واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة والعبقرية المعجزة ، والبديهة المطيعة ، وهذه والفضل الذي ما سمع في الأوائل مثل ولا عاش في زمانه الثاني بعبارة أو جرى في مضماره فرد وكان شريعة الصنعة التي نسخت الشرائع "(٣).

ويبدو لنا أن كلا من القاضي الفاضل وابن الأنصر [illegible] في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس وتوفيها بوز في العناية بالتنظيمين الهندسي والأساس، وفي رسم صورة المجتمع الأدبي، ولا سيما المعارك الأدبية والمواقف السياسية للكتاب، [illegible] صلاح الدين ومعاركه بعضهم وبالآخرين .

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

المـــراجـــع

(١) ابن الأثير (ضياء الدين) (أ) الرسائل :

نشر وتحقيق · د · أنيس المقدسى ، طبع المجمع العلمى العراقى سنه ١٩٥٩ ·

نفس المصدر تحقيق: د · فنورى القيسى ، هلال ناجى · منشورات جامعة الموصل ·

(ب) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ·

تحقيق : د· احمد الحوفى، د· بدوى طبانه ، طبعة دار نهضه مصر ·

(٢) **ابن خلكان القاضى أحمد** : وفيات الأعيان ، طبعه عيسى البابى الحلبى · القاهرة ·

(٣) **ابن العماد الحنبلى أبو الفلاح عبد الحى** : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب·

تحقيق : لجنة أحياء التراث العربى · دار الآفاق الحديثة ، بيروت، طبعة مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥١ هـ·

(٤) **ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم**: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب·

تحقيق· د · حسنين محمد ربيع، د · سعيد عبد الفتاح عاشور ،

مطبعه دار الكتب ، سنة ١٦٧٢ ·